دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	اشكالية العمارة والتنظير البنيوي
المصدر:	عالم الفكر
الناشر:	المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
المؤلف الرئيسي:	الجادرجي، رفعة
المجلد/العدد:	مج 27, ع 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	9 - 28
رقم MD:	216478
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	العلمانية ، العمارة ، الجوانب الاجتماعية، التنمية الاجتماعية، الطباعة ، الحداثة ، الفكر المعماري
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/216478

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

إشكالية العمارة والتنظير البنيوي

رفعة الجادرجي*

١- التنظير البنيوي للعمارة

يتطلب التعرف على متطلبات العمارة، وتهيئة استراتيجيات وطرائقيات تعامل متوافق مع التطور المعرفي المعاصر لها، يتطلب التعرف على تكوينها البنيوي، كموقف نظري منها كأي ظاهرة أخرى، سواء أكانت اجتماعية أم طبيعية. فبهذه المعرفة التنظيرية -وعن طريقها- نتمكن من الوقوف على واقعيات مصنفاتها، وفرز مختلف مقوماتها، والتعرف على آليات سيرورات توليدها للوجود، وكذلك التعرف على إفعالاتها كأداة في إشباع متطلبات المجتمع، وتبعا لذلك، التعرف على دورها في تنظيم معاش المجتمع. ولم تكن هذه المعرفة في المجتمع التقليدي ضرورية بالنسبة للعمارة، ضرورتها بالنسبة للظواهر الأخرى، كما أصبحت عليه في عصرنا الحاضر.

* معماري ومنظّر مقيم في انجلترا.

فقد أخذ الفكر، ابتداءً من عصر النهضة، يُعرِّض مختلف الظواهر إلى تنظير بنيوي، بمختلف الصيغ والتسميات. وبتراكم هذه المعرفة، وبمجموعها، أخذ العلم المعاصر في التكون. وهكذا أخذ اكتشاف بنيويات الظواهر يتعاقب منذ أن وضع اللبنة الأولى في الصرح الفكري لعصر النهضة عالم الفلك البولندي نيقولاس كوبرنيكوس (١٥٤٣-١٤٧٣). فقد تجاوز هذا العالم الفرضيات اللاهوتية والأرسطية وبيَّن أن الأرض وسائر الكواكب السيارة هي التي تدور حول الشمس. وبهذه القفزة الفكرية تأسس علم الفلك المعاصر، وتم تجاوز غيبيات التنجيم. فأخذ الفكر النهضوي يعرض الظواهر، الواحدة بعد الأخرى، إلى تحليل وتصنيف أكثر واقعية، هدفه الكشف عن مقومات حركاتها وآلياتها، أي التعرف على بنيوياتها.

وعلى الرغم من هذا التطور الهائل في مختلف العلوم، وتحقق اكتشاف بنيويات مختلف الظواهر: الفيزيائية والكيميائية والحياتية والطبية واللسانية والنفسية، ظلت ظاهرة العمارة، ومعها ظاهرة الفن عامة، تفتقر إلى مفهوم بنيوي. إذ لم يزل تعليم تقانة العمارة في المجال الأكاديمي، وتثقيف الفرد عامة حول كيفية التعامل معها، ينحصر في أغلب الحالات في مسألة التكوين الشكلي: مقارنة لشكلياتها، وتدوين تاريخ ظهور هذه الشكليات، أي طرزها، ومقارنة تاريخ هذا الظهور، مع نوادر إحداثات داخل المنشآت أو حولها، أو نوادر عن طرائقية إنشائها.

مع ظهور الفكر النهضوي ظهر التشخص- أي تفرد الفرد وحق التفرد- وظهر الاختصاص في إنتاج العمارة، وظهر معه المعمار المعاصر كما نعرفه اليوم، والمتمثل في شخصيات متخصصة كبرونلسكي (١٤٤٦-١٣٧٧) وألبرتي (٧٢-١٤٠٤)، وبهذا انتهى دور المعمار الحرفي، وأدى هذا التخصص إلى إبعاد الفرد العادي عن هموم تعقيدات رؤيوية العمارة وتصنيعها، فانحصرت هذه في ذوي الاختصاص والصفوة. فأصبح الموقف الفكري منها، من قبل الفرد العادي ومعظم المنظمات الاجتماعية، هو التلقي السلبي في أغلب الأحوال، دون أن يكون له دور فكري فعال في تصورها ورؤيتها. وهكذا أصبح المعمار المعاصر، يفكر ويتعامل مع تعقيداتها بمعزل عن المجتمع، وأدى هذا العزل إلى جعل القسط الأكبر من أفراد المجتمع أميا بالنسبة إلى تعقيدات رؤيتها وتصنيعها، كما جعل - في المقابل - المعمار أميّا بالنسبة إلى المتطلبات الحقيقية لأفراد المجتمع وهمومهم.

كان إنتاج العمارة في المجتمع التقليدي، ما قبل عصر النهضة - وخاصة ما قبل الميكنة - يتحقق بمعرفة حدسية وتجريبية يتشارك فيها الحرفي، بصفته رؤيوي ومصنّع، والمتلقي، سواء كان تاجرا أو حاكما أو مالكا أو مزارعا، كمتلق له دور فكري فعال في مختلف مراحل الإنتاج، وفي ما قبل التصنيع كرؤيوي، وبالاشتراك مع الحرفي المصنِّع. وإضافة إلى عامل العلاقة بين

الطرفين في الإنتاج، الحرفي والمتلقي، كان هناك عامل آخر يقرب رؤيوية الحرفي إلى هموم المجتمع، كما يقرب الفرد المتلقي لتقانة الحرفي، ألا وهو بطء تطور المعرفة.

لذا، لم تكن هناك حاجة إلى معرفة تنظيرية لبنيوية العمارة لتحقيق عمارة جيدة، ولم يكن متوفرا موقف معرفي يؤهل الفكر للوقوف على بنيويات الظواهر قبل ظهور عصر النهضة أصلا.

ومع ظهور الميكنة، في بدء القرن التاسع عشر، تم تدريجيا عزل المعمار المعاصر عن متطلبات التصنيع، فاجتمع عزل المعمار عن متطلبات التصنيع مع عزل الفرد المتلقي عن هموم المعمار، والمعمار عن هموم المتلقي، وأدى هذا بمجموعه إلى إحداث خلل جوهري في إنتاج العمارة. وقد ظهرت نتائجه أولا في انكلترا الصناعية منذ منتصف القرن التاسع عشر.

وتفاقم هذا الخلل، وعم في مختلف أرجاء العالم مع تقدم الاختصاص والميكنة. وقبل أن ينتهي النصف الأول من القرن العشرين أخذ هذا الخلل في الإنتاج يسبب تلوثا معماريا عاما، حيث لم يكد ينتهي القرن الذي نحن فيه، حتى تلوثت البيئة المعمارية في المجتمعات عامة - وخاصة في العالم الثالث - بدرجة أصبح معها عاملا فعالاً في تبليد حس الفرد نحو بيئة البنية التي يتعامل معها، والتي تُنَظِم معاشه اليومي داخلها وحولها. لاشك، أن المعمار المعاصر، في مختلف مراحل تطور طرز العمارة، منذ عصر النهضة حتى الوقت الحاضر، حقق عمارة متميزة جدا، إلا أنها غالبا ما تكون نادرة، ولا تؤلف إلا جزءا مقتصرا في تكوين بيئة البنية. ولذا، على الرغم من الجهد الهائل الذي بذله الفكر المعماري في الابتكار والتنويع، فإن العمارة عامة، لا تتعاطف مع وجدانية المجتمع، ولا تؤلف أداة تهيىء له معاشاً إنسانياً، أو أداة يسخرها ليعبر عن عاطفته الإنسانية. فأصبح المعمار - وأقصد غالب الفكر التنظيري- متسامياً عن هموم المجتمع، كما أصبح المجتمع مغتربا عن هموم المعمار، وكلاهما لا مبالٍ بالآخر.

لقد تحققت كل هذه التغيرات في إنتاج العمارة، من إبداع وتنويع - وفي الوقت عينه، من تلوث- دون أن يتحقق ما يقابلها من تنظير مناسب، كما هو الحال في مختلف المواقف الفكرية من الظواهر الاجتماعية والطبيعية الأخرى، أو يتحقق تنظير لها يواكب التنظير للظواهر الأخرى. نعم، هناك وعي في المجال الأكاديمي بوجود هذا التلوث، ولكن غالب هذا الفكر يهمل مواجهة هذا الخلل في تكوين بيئة المجتمع، وتبعا لذلك لا يرتأى له دور في سبب هذا الخلل وتفاقمه، أو يرى هناك ضرورة لأن يكون له دور فعال لمعالجته أصلا.

هنا في هذا الموقف يكون موقع إشكالية العمارة ومسبباتها. ويختلف مفهوم المشكلة عن الإشكالية، فالأولى تظهر حين تظهر حالة غير مرغوب فيها أو مؤذية، لم تحل بعد، أو أنها في دور إيجاد الحلول لمواجهتها وتجاوزها. أما الإشكالية، فهي مفهوم يشير إلى مشكلة لا يتوفر لها

تنظير أو طرائقية لحلها ومواجهتها، أو أن الفكر لم يزل عاجزاً عن إدراك مصدر مسبباتها، أو مواقع الخلل ضمن الحالة عامة. لذا لا يمتلك معرفة أو تنظيراً يسخره ليتمكن من تجاوزها. إذن، ما نواجهه من خلل في العمارة، من تلوث البيئة المعمارية هو إشكالية على صعيدين: صعيد الفكر المعماري المتخصص (الأكاديمي والمهني)، وصعيد المجتمع المغترب عنها عامة.

لا اعتقد أنه يمكن لنا، في العالم العربي، ولا لغيرنا، مواجهة متطلبات التعامل مع ظاهرة العمارة - إن اكتفينا بالمعرفة، كما هي عليه في الوقت الحاضر، أو كما هي سائدة وفعالة عند المجتمعين الأكاديمي والمهني - دون الخوض في بنيويتها. كما أنني اعتقد أننا إن أردنا مواجهة إشكالية التلوث المعماري الحاصل عامة في مختلف مدننا، بات لابد لنا من الإشارة في هذا الصدد إلى بعض مبادىء التنظير البنيوي، لنتمكن من التعرف على بعض مقومات الظاهرة، وآليات حركاتها، وبهذه المعرفة ستتهيأ لنا الأداة التنظيرية التي تمكننا من الوقوف على مواقع مسببات الخلل فيها، فتتهيأ لنا الفرصة الابستمولوجية المناسبة لاستحداث استراتيجيات : نظرية وتعليمية وإعلامية وتطبيقية، لمعالجة إشكالياتها.

٢- وظيفة العمارة

أول ما يتعين أن نقدم عليه في تعرفنا على بنيوية ظاهرة العمارة أن نحدد مفهومنا لوظيفة العمارة. يولد الإنسان وبه نقص متأصل في كيانه البيولوجي، أي أن الإنسان لا يتمكن من الوجود وإدامة بقاء آمن ومريح وممتع، ما لم يقدم على ابتداع وتصنيع مُصنَّعات كأداة يُسخِرُها في إشباع متطلبات هذه الحاجة، ولذا فإن إنتاج المصنّعات ضرورة متأصلة في كيان الإنسان وإدامة بقائه. والعمارة هي إحدى هذه المُصنّعات التي يبتدعها. فمثلا، يحتاج الإنسان إلى ملجأ يحمي به بدنه من العوامل الطبيعية والحيوانات المفترسة وغيرها من الأشياء التي تعرض بقاءه للخطر، أي عليه أن يقدم على تحويل بعض مواد البيئة، كالخشب والحجر، إلى أدوات يسخرها لإشباع هذا النقص.

في تعامل الفرد مع عالمه الخارجي، لابد له من أن يحدد موقعه بين الأشياء المادية والآخر، وبهذا يحدد موقع هويته، ويعلن عنها إزاء الآخر. إن تحديد هذه الهوية ليس بمسألة تلقائية، إنما هي مخاضات فكرية وسيرورات تفاعلية ترجع إلى تناقض متأصل في تكوين نفسية الفرد، إنه تناقض بين الكيان الذاتي للفرد والعالم الخارجي الذي يواجهه ويتعامل معه، أي بين متطلبات الذات الواعية من جهة، ومتطلبات المجتمع والبيئة الطبيعية التي تواجهها هذه الذات من جهة أخرى.

إن ذات الفرد تكون في دوامة إعادة تركيب المعلومات التي تتلقاها منذ الولادة حتى الوفاة،

فتقدم على توافقها مع مزاجياتها، وقابلياتها الذهنية، وتحدد موقعها في المجتمع. أي أن الذات في دوامة إعادة تركيب هويتها دائما. والعلاقات الاجتماعية، هي التي تحدد موقع الفرد في المجتمع.

الحاجة في العمارة

يظهر هذا النقص في وعي الفرد كحاجة يتعين إشباعها، والحاجة تتنوع وتتطور في إفعالات متبادلة مع تطور الفكر. مع ذلك يمكن لنا، من موقف نظري، أن نحددها بثلاثة أصناف، وهي: الحاجة النفعية والرمزية والاستطيقية Aesthetic .

الحاجة النفعية

تؤمن هذه الحاجة متطلبات البقاء الأساسي في المعاش، كتأمين الملجأ والخزن والراحة البدنية والنقل والحماية، ويتمثل هذا في وظائف الدار والقلعة والكرسي والعربة والسيف.

الحاجة الرمزية

تؤمن هذه الحاجة متطلبات هوية الفرد والمجموعة، وتعبر وتعلن عنها. ويتحقق هذا عن طريق تصنيع مصنّعات تحمل معالم تعبر عن متطلبات هوية الذات. يتمثل هذا في الدلالات المعنوية: كالفخامة وطرز المعابد.

الحاجة الاستطيقية

تؤمن هذه الحاجة تخفيف حدة الملل الذي يحدث بسبب التعامل المتكرر، ويتحقق هذا عن طريق استحداث شكليات متنوعة للمعالم التي تحملها المصنَّعات. ولكي لا يؤلف هذا التنويع فوضى بصرية، فإنه ينظمها عن طريق أنماط ترتب التكوين الشكلي، وذلك بنسب وإيقاع وتماثل وتوازن وتغاير وتباين وغيرها من مقومات التكوين البصري. وبتكوين هذه الشكلية المنتظمة، تقلُّ الفوضى القائمة في المعاش، كما يقل إعياء الفكر عند التعامل مع المتنوعات، وبهذا يصبح التعامل مع المصنّعات أوضح للفهم والإدراك.

٣- التكوين البنيوي للعمارة Structure

يتضمن التكوين البنيوي للظواهر الجامدة ناحيتين: مقومات مادية من ناحية، وعلاقاتها وحركاتها من ناحية أخرى. أما التكوين البنيوي للعمارة – أو بنيويتها– فيتضمن الفكر إضافة إلى المادة. وتظهر مقومات وعي الفكر وهمومه كحاجات يتعين إشباعها.

تكوِّن المقومات المادية والفكرية وجود العمارة كبنية قائمة بين الأشياء، وشاغلة حيزا في

الوجود. وتتجمع هذه المقومات، وتستقطب بثلاثة محددات: الحاجة الاجتماعية، والتقانة الاجتماعية، والفرد المؤدي. وبظهور هذه المحددات للوجود تتحرك وتتفاعل وبواسطها وبفاعلها الفرد المؤدي، فيتولد المصنَّع للوجود. وبإفعالات لاحقة متكررة، تُتلف جسدية هذا المصنّع ويهمل. فتستولد محددات جديدة مرة أخرى، وبإفعالاتها يستولد مصنع جديد بديلاً لذلك الذي أتلف. وهكذا ينتقل الإنتاج من دورة إلى أخرى.

إن الوجود المادي للمقومات يحقق احتلال حيز بين الأشياء الطبيعية والاجتماعية، كالخشب والحجر. ويؤلف الوجود الفكري همّ الفرد في إدامة البقاء والوعي بوجود الحاجة، وبوجودية الذات. وتعمل المقومات الفكرية على دعم الهوية في الوجود، وعرضها إزاء الآخر، فتؤلف وجدانية الفرد وترابطها مع وجدانية الجماعة. كما أن المقومات الفكرية والحسية هي التي تؤمن متعة الوجود بين الأشياء، والملاذذة مع الآخر.

وهناك اختلاف جوهري بين بنيوية الظواهر الجامدة والفكرية، فبينما تكون الأولى خاضعة لقوانين ثابتة ولتصادفيات طارئة، تحدد وجودها وحركاتها، أو تؤطرها، فإن الثانية تكون خاضعة لإرادة الفرد والسلوكيات البيولوجية المستورثة، ولذا فإنها تتضمن العقلانية والاعتباطية والفنطزة والإبداع والأوهام.

وبقدر ما يكون وجود هذه المقومات الفكرية والمادية ثابتاً واطرادياً، فإنه يؤلف واقعية الوجود البنيوي، وبقدر ما يكون هذا الوجود ظاهراً لوعي الفرد، كحالات ثابتة واطرادية، يؤلف هذا الوعي المعرفة البنيوية للظاهرة. ووظيفة التنظير البنيوي هي السعي لاكتشاف هذه الواقعية، والبحث فيها، وتسخيرها في التعليم.

البنية Construct

في مقابل التكوين والتنظير البنيويين، يؤلف الكيان المادي المتحقق كمحصلة لحركة هذه المقومات، البنية Construct، وهو المصنّع الذي يسخر كأداة في إشباع الحاجة. فكما أن اختيار المقومات، وإفعالها من قبل الفرد، يهدف أصلا لتحقيق البنية للوجود، فإن هذا التحقيق لا يتم مالم تكن هناك بنيوية فكرية، منها ما هو ظاهر للإدراك، ومنها الآخر الباطني، مما يجعل تحقيق البنية ممكنا. وهنا مصدر العلاقة بين البنية والبنيوية وترابطهما الجدلي: فحينما تكون البنية هي واقعية الوجود في الزمان والمكان للمقومات الفكرية والمادية، ومحصلاتهما ككيان قائم ومقترن بوظيفة اجتماعية. تؤلف واقعية البنيوية، من جهة أخرى، تلك الحالات من المعممات والمتكررات والمتشابهات لمختلف المقومات والحركات - الثوابت والاطراديات - التي لا تتحدد بزمان أو بمكان.

والتنظير البنيوي هو المعرفة بهذه الثوابت والاطراديات، الظاهرية والباطنية، التي تنظم بموجب مفاهيم عقلانية واضحة.

لا يمكن أن نحقق توليداً مصنّعاً للوجود، ما لم تكن هناك معرفة لبنيويته، وفيما كانت هذه المعرفة في الإنتاج التقليدي، تتألف من بنيوية بدائية وحدسية، فإن المعرفة المتوفرة للفكر المعاصر، في مختلف مراحل الإنتاج، متقدمة وعلمية، ومتوسعة، إلا أنها لا تؤلف منظومة بنيوية منظمة، بل تظهر للفرد، خارج اختصاصه، غير متجانسة ومتجزئة، ولذا فهي محيرة ومربكة للفكر. وبقدر مالها من علاقة بتنظيم بيئة البنية التي أفسدت، بقدر ما تظهر كإشكالية فكرية.

٤- الإنتاج التقليدي والمعاصر

منذ أن ظهر الإنسان العاقل، تمكن من تحقيق مصنّعات، ومنها العمارة، التي تتصف بكفاءات عالية، ومتوافقة مع متطلبات البيئة الاجتماعية والطبيعية، وترضي الوظائف التي كانت قد صنعت من أجلها. وقد اتصف تعامله معها- أي التلقي- بنفس الكفاءة. وكان هذا في مختلف العصور ومختلف أصقاع العالم، حتى ظهرت المعاصرة، ومعها التشخص والميكنة. فتحول جلّ إنتاج المصنّعات إلى تبادل سلعي، وبهذا التحول ظهرت الحداثة، فأحدثت تغييرا جذريا في إنتاج العمارة، وفي الموقف الفكري منها.

ففي المجتمع والإنتاج التقليديين، كان الفرد في مختلف مراحل الإنتاج: الرؤيوية والتصنيع والتلقي، مؤديا جيداً. فالحرفي كان رؤيويا ومصنّعا جيدا، والمتلقي : سواء كان مقامه حاكما أو تاجرا أو فلاحا، وسواء كان من سكان الريف أو الحضر، كان يحقق أداء متبادلاً جيدا في المقابل.

إذن، علينا أن نسأل: كيف تمكنت تلك الحضارات المختلفة، من تحقيق هذه الكفاءة في التصنيع، وهذا التعامل الجيد مع المصنّعات؟

إن الجواب على هذا يمكن اختزاله بقولنا: إن الإنتاج في المجتمع التقليدي كان ينتهج سلوكيات ومعرفة تقليدية، والإنتاج المعاصر ينتهج سلوكيات ومعرفة معاصرة، والفرق جوهري بين الاثنين.

الإنتاج التقليدي

يتمتع الإنتاج التقليدي في مختلف المجتمعات، بمعرفة متوازنة بمختلف المقومات. وسبب هذا التوازن هو بطء التطور المتحقق في كلا المحددّين : المطلب الاجتماعي والتقانة الاجتماعية. ولذا

كان التغير المتحقق في المحصلات وتعاقب شكلياتها جزئيا، وظهوره في تعاقب بطيىء حيث يمكن للفرد المؤدي أن يتأمل هذه الشكليات ويتعرف عليها، ويوافق سلوكياته معها، ويقارن سلوكياته مع الفرد الآخر، ويقيم جدواها، وهذا يعني أنه كان في وسع الفرد عامة أن يلم بالمعلومات المناسبة ليتمكن من أداء مناسب مع المصنّعات، لا في مختلف مراحل الإنتاج فحسب، بل في مختلف مراحل امتداد سيرة حياته الخاصة كذلك. فما يحصل عليه من خبرة، تتراكم مع مرور الزمن، ولاتتعرض إلى تغيرات جذرية فجائية. وهكذا يقدم على إجراء تعديل مناسب، أو يهمل ماهو فاسد وأخرق منها. ويعني هذا أن الإنتاج التقليدي كان يتمتع بآلية التصحيح الذاتي والمباشر في تحقيق نهج سلوكيات مجدية، وتأمين إشباع مناسب للحاجة.

الإنتاج المعاصر

ظهرت علامات العصر النهضوي، في مجال العمارة في مطلع القرن الخامس عشر، حينما ظهر للوجود المعمار المتشخص. فحدث تغيير جذري في المجتمع، في الفكر وفي العلاقات الإنتاجية، وربما كانت أهم مقومات المعاصرة هي :

أ- **ظهور الطباعة** : بظهور الطباعة انتشرت المعرفة، بين الطبقة الوسطى على وجه الخصوص أولا، ومن ثم بين الطبقات الدنيا. بهذا الانتشار زال - أو خف إلى حد بعيد- احتكار المعرفة من قبل سلطة اللاهوت. وتبعا لهذا، تهيأت الظروف الفكرية لتوسع التشخص في المجتمع، وكان المعماري من أول المتهنين الذي ارتقوا إلى هذا المقام.

ب- **ظهور العلمانية** : أي تحرير فكر المجتمع وإدارة تنظيمه من هيمنة الفكر اللاهوتي ومنظماته، فقد أدى هذا إلى منح أهل الفكر والطليعة حرية التعامل مع الظواهر من موقف موضوعي، دون التزام بالمفاهيم اللاهوتية والتحدد بفكرها. ومن هنا تقدم فكر الإنسان نحو العلم بمفهومه المعاصر، في موضوعيته وإجراءاته الصارمة، ونهجه الناقد لذاته. فظهرت علوم الفيزياء، والبيولوجيا، وطبقات الأرض، وبعد هذا علوم الاجتماع والاقتصاد والألسنية، وغيرها. كما ظهر الفكر الفلسفي التنويري، ومفاهيم حقوق الإنسان والديمقراطية في السياسة وفي إدارة تنظيم شؤون المجتمع.

جـ- **التشخص Individuation** : منح ظهور البرجوازية حرية التشخص، وبالتحديد بظهور المعماريين الفلورنسيين: فيليبو برنليسكي (١٤٤٦-١٣٧٧)، ومن بعده ليون باتيستا ألبرتي (٧٢-١٤٠٤)، أي منح الفرد المعمار حرية التفرد كفكر، مما جعله غير مرتبط أو محدد بالمرجعية القائمة، الأمر الذي أدى إلى توليد مرجعيات متشخصة متمايزة.

فأخذ الفكر الجديد يبتدع ويتنافس في عرض خصوصياته، لا يتحدد بالمرجعيات الفكرية القائمة، وإنما يبتدع الجديد منها، ويضيف إليها، في تطور متسارع متنافس. وتبعا لهذا، أصبح المتلقي عاجزاً عن التحاور مع المعمار بقدر اختلاف مرجعياتهما. وكانت هذه بداية الفجوة الفكرية بين المعمار والمتلقي، أي بعد ما تعددت المرجعيات واختلفت. فنقل هؤلاء المعرفة من كونها تجريبية حدسية، كما هي عند الحرفي المعمار، إلى معرفة تجريبية قياسية، كما ظهرت خاصة عند أندريا بلاديو (١٥٠٨-٨٠). وانتقل المعمار المتشخص من مقام الحرفي إلى مقام المعمار الأكاديمي، وارتقى إلى موقعه الاجتماعي من الطبقة ما دون الوسطى إلى مقام الطبقة الوسطى. احتكر المعمار من موقعه هذا الرؤيوية في الإنتاج، كما فقد تماسه مع المادة، في حين زال دور الحرفي، وظهر كعامل دون أن يكون له دور في الرؤيوية. وبهذا التغير الجذري في دور الفرد المؤدي، جرد من دوره الرؤيوي، كما فقد المعمار المعاصر تماسه المباشر مع المادة، وربما كان جون رسكن Ruskin (١٩٠٠-١٨١٩) أول من انتبه لهذا الخلل في الإنتاج.

د- تسارع تطور المعرفة وتقانة الإنتاج كما ونوعا : مما أدى إلى إحداث مرجعيتين في المجتمع: مرجعية المتخصص (المعمار)، وفي المقابل مرجعية المتلقي، بين مختلف المستويات في التفاضل الاجتماعي.

الحداثة

وهكذا فقد أدّى ظهور العصر النهضوي إلى تغير جذري في العلاقات الإنتاجية، فظهور الميكنة أدى إلى تغير أكثر جذرية في هذه العلاقات. وإن أدّى ظهور التشخص إلى عزل المعمار الأكاديمي عن مرحلة التصنيع، فإن العلوم المعاصرة، بسبب تزايد كمياتها وسرعة توسعها وتنوعها، أحدثت تخصصاً متصاعداً ومركباً مما أفضى إلى تجزئة وظيفة المعمار، كفكر وممارسة. وربما كانت أهم المتغيرات التي كانت السبب في ظهور الحداثة، هي :

(١) توسع الاختصاصات : أخذت العلوم في مختلف المجالات تتطور في العصر النهضوي، فازداد وتسارع هذا التطور، وظهرت علوم جديدة أخرى، وأدت متطلبات التعامل مع هذه العلوم، في اكتشافها وتطويرها، إلى ظهور التخصص المكثف، الذي أدى بدوره، وبتفاعل معه، إلى تسارع تطور تقانة إنتاج العمارة. وبقدر ما تقدمت العلوم فقد توسعت الاختصاصات وتجزأت، ويتمثل هذا التجزؤ في ظهور المهندس الإنشائي والكهربائي والصحي والصوتي والمساح وغيرها من أدوار في الإنتاج.

لم يقف هذا التخصص في عزل الفرد عن الجزئيات الأخرى في الإنتاج، بل تم عزل الفرد بسبب المتطلبات المعرفية للاختصاص الجزيئي، عن كثير من متطلبات المجتمع وكثير من مقومات

مرجعياته. فأصبح أغلب هؤلاء الأفراد المتخصصين يجهلون المتطلبات الواقعية والمعلوماتية لمعاش الفرد المتلقي، وكذلك متطلباته الحسية العاطفية، أي فقدت هموم هؤلاء ارتباطها المباشر مع متطلبات الضمير الاجتماعي، كما أدى هذا الاختصاص، بسبب متطلباته المعلوماتية المكثفة والمجهدة، إلى إهمال التعرف على تاريخ اختصاصه، ومن هذا الموقف الفكري اللا تاريخي أهمل التعرف على تاريخ مجتمعه وحضارته.

مع ذلك، ظهر بين هؤلاء المتخصصين من تمكن من التوفيق بين متطلبات الاختصاص ومتطلبات إنسانية الفرد ومتطلبات المجتمع عامة، أي لم يعزل ذاته وضميره ووجدانه عن ضمير المجتمع، وبقي يتعاطف معه كما كان الحرفي سابقاً، في المجتمع التقليدي. ومن هنا ظهر في المجتمع المعاصر صنفان من ذوي الاختصاص : العالم المثقف والذي يتعاطف مع وجدانية المجتمع، والآخر، وهو التقني، الذي يتمثل همه الأول في إتقان دوره التقني.

يتسم توزيع العمل المتخصص بعزل المؤدين، في المراحل الإنتاجية الثلاث، مما يؤدي إلى فقدان شفافية العلاقة بين مراحل الإنتاج، واحتقان تسرب المعلومات بينها. كما أدى التطور العلمي إلى توسع المعلومات وتنوعها وزيادة وفرتها أسيًا، ومن ثم إلى إغراق فكر المؤدي، فتحقق تبعا لذلك عزل فكره في اختصاصات ضيقة ليتمكن من أداء تعامل كفء، وصح هذا سواء كان المؤدي : رؤيويا أو مصنعا أو متلقيا.

(٢) الميكنة في الإنتاج : أدى استحداث الميكنة في الإنتاج إلى فقدان العلاقة السبريانية Cy-bernatics في التصنيع، أو تخفيفها أو تقطيعها. تؤلف السبريانية تعاملا متأصلا في التصنيع الحرفي اليدوي، إذ إن هذا الإنتاج يستند أصلا إلى العلاقة الآنية الحسية في تغير المادة من حالتها الخام إلى مصنّع. ويعني هذا أن بعض مراحل التصنيع فقدت بعضا من العلاقة المباشرة والآنية بين فكر المؤدي المصنع، والتغير الحاصل في المادة الخام. إن وجود هذه العلاقة أو غيابها يؤلف جوهر التباين بين التصنيع اليدوي والتصنيع الميكن.

(٣) احتقان انسيابية المعرفة بين مراحل الإنتاج : ومع تقدم الإنتاج المعاصر، وتكثف الاختصاص، ازداد تبعاً لذلك احتقان السدادات بين المرحلتين الأوليين، الرؤيوية والتصنيع. إن احتقان انسيابية المعرفة بين المراحل يعني انسدادها عن مرحلة التلقي. لذا أصبح المتلقي مستهلكاً أمياً، أي أصبح بمعزل عن الفكر الرؤيوي للمعمار المصمم، وكذلك عن مختلف الاختصاصات والتقانة المتقدمة والمتشعبة والمتحققة في مرحلة التصنيع. وبهذا الدور في الإنتاج، فقد المتلقي دوره في تهيئة تغذية مرجعة أو مرتدة مناسبة إلى المرحلتين الأوليين. وبهذا فقدت الوظيفة الاجتماعية لتهيئة التغذية المرتدة تماسها مع واقعية التلقي، واستلب المتلقي عن دوره

الخلاق في الإنتاج، وأصبح متلقياً يجهل المعرفة المسخرة، أي أصبح متلقياً معزلاً وأصماً. بل أكثر من هذا، فكلما تفاقم الاختصاص وتركب، وكلما انتقلت وظيفة تهيئة التغذية المرتدة إلى هؤلاء المتخصصين، أصبحت تهيئة البحث والمعرفة المتطلبة لهذه التغذية تصدر من موقف رؤيوي ومُصنّع، وليس من موقف متلق. ومن هنا أصبح المتلقي يتعامل مع مُصنّعات تقدم له كبدائل جاهزة، لا مع مصنعات يتعين أن يكون له دور في تصور تصنيعها وكيفية تسخيرها في تلبية حاجاته. ولقد استحدث جهاز متخصص، وهو الإعلان التجاري، وظيفته توجيه هذا المتلقي وإغراؤه لاختيار هذه البدائل الجاهزة، والتي تتوافق أكثر مع متطلبات المُصنّع والرؤيوي، وتخضع للنظام «السوقي» أكثر من اهتمامها بالمتطلبات الحقيقية للمتلقي.

(٤) زيادة النفوس : إن التطور العلمي في مجال صحة الفرد وطبابته، إضافة إلى زيادة توفر الطعام، أدى إلى زيادة نفوس البشر زيادات أسية لم يكن الفكر القيادي للمجتمع، السياسي واللاهوتي والعلماني، قادراً على الوصول إلى حلول جذرية، تنظيرية وعملية لها، لمواجهة متطلبات هذه الزيادة، مما أدى إلى إغراق البيئة الريفية والحضرية بعمارة وقتية غالبها أخرق، تفتقد التصور لبقاء دائم.

وأدت هذه العوامل وغيرها، إلى فقدان الآلية الذاتية لملاحظة الخلل الحاصل في التصنيع في الوقت المناسب، وبعد فوات تعاقب دورات إنتاجية متعددة، مما أدى إلى تسخير استراتيجيات فاسدة في الدورات اللاحقة، ولذا تكرر الخلل وتفاقم. ففقد الإنتاج عامة قدرته على تحقيق توازن مناسب في تلبية أو إشباع الحاجات الثلاث. كانت هذه بعض مقومات الحداثة التي تكيّف العلاقة بين المعمار والمتلقي أكثر من غيرها.

الفكر المعماري الدولي

ظهرت معالم الحداثة في أواخر القرن الثامن عشر، حينما استجدت طرائقية جديدة في تصنيع الحديد الصب. وظهرت أولى محصلاته في تصميم الجسور والبيوت الزجاجية، في انكلترا وهولندا وألمانيا وفرنسا وغيرها. وبعد هذا بقليل ظهر التصنيع الميكن، وقد تبلورت هذه التقانة في منتصف القرن التاسع عشر، وتمثلت في بناء القصر البلوري في لندن ١٨٥١. وقبل انتهاء القرن التاسع عشر، انضم الكثير من قادة الفكر المعماري للحداثة إلى مفاهيم المجتمع الرفاهي، وإلى تبني عمارة تدعم هذا المفهوم وتتوافق معه خاصة بعد الحرب العالمية الأولى. كان هذا فكراً عقلانياً، علمياً، يسارياً وعلمانياً، ولم يلتزم بالتكوينات الشكلية للطرز السابقة لعدم توافقها مع متطلبات التصنيع الميكن لاغياً معها أيضاً الاهتمام بالمتطلبات الإقليمية وخصوصياتها. وقد اعتمد تصورا يفترض أن في قدرة الميكنة تجاوز كل هذه المتطلبات، باعتبار

أن متطلبات الفرد المعاصر أصبحت متشابهة، وأنها متساوية في غالب حالاتها، كما يتمثل ذلك في النقل والاتصال عن طريق القاطرات والبواخر والطائرات، وغيرها. وهكذا أضحت دعوة الحداثة عمارة دولية متشابهة، إذ كان الاعتقاد المعماري الحديث السائد - لدى الطبقة المثقفة الأوروبية عامة وخاصة اليسارية منها - أن الحداثة، المتضمنة للإنتاج المميكن، والمفاهيم الاشتراكية عموماً، ستؤمن الرفاهية والرعاية الاجتماعية، ضمن تصور زمني معقول للجميع، وفي مختلف أرجاء العالم.

ويعني هذا - وفقا لافتراض فكر الحداثة - تساوي الشعوب في متطلباتها وإمكانات تلبية حاجاتها، ولذا لم يأخذ هذا الموقف النظري بعين الاعتبار الخصوصية الإقليمية والثقافية والحضارية والصناعية وخصوصية تحديد الهويات الإثنية والوطنية والتراثية.

لقد أنجزت العمارة الحديثة الدولية ثورة فكرية تقدمية إنسانية، إلا أنها في موقفها الإنساني الشمولي هذا، تجاهلت الخصوصية الإقليمية، وهنا مصدر سلبية موقف الحداثة والعمارة الدولية.

إن استحداث شكل مبسط في مظهره الخارجي، خال من التنويع للتكوين الشكلي، ولا يراعي خصوصية المكان أو حاجاته الرمزية، ولا يسبب عمارة ملوثة في الوقت ذاته، لا يمكن تحقيقه إلا من قبل معماريين ذوي كفاءات متميزة جداً. لذلك نرى - بعد مضي حوالي عقدين من الزمن على الحرب العالمية الثانية، وبعد أن انتشرت مفاهيم العمارة الحديثة الدولية وتوسعت إلى مختلف أرجاء العالم لتمارس من قبل معماريين أقل كفاءة - أن هذه الممارسات أدت إلى انتشار بنيات مملة، لا تراعي ولا تشبع متطلبات خصوصية هوية المجتمع أو المتطلبات النفسية للفرد، بل أصبحت البيئة المعاشة التي أنجبتها، في كثير من المدن، من الأسباب المباشرة للكآبة، وبالتالي للإجرام. فقد قام ساكنو هذه المنشآت، في حالات كثيرة، بالعبث فيها وتخريبها عمداً.

لقد حقق فكر الحداثة عمارة متميزة جداً، أصبحت محصلاتها تؤلف روائع التعمير المعاصر، ابتداء بعصر القصر البلوري في انكلترا في منتصف القرن التاسع عشر، وما تمكنت من تحقيقه من تصنيع وتنظير جماعة الـ (فرك باند) في ألمانيا، وبعدها جماعة الـ (باوهاوس). سعت هذه المدرسة إلى ربط ممارسة التصنيع اليدوي الحرفي مع المميكن على حد سواء، وهنا كان مصدر موقفها الرجوعي والطليعي. مع ذلك، حققت شكليات معمارية وتصنيعية متوافقة مع متطلبات الميكنة. لذا كان لتجاربها وإنجازاتها، ولايزال، تأثير جذري في التصنيع المعاصر المميكن. فتوسعت مفاهيم الحداثة وظهرت بممارسات متميزة حققها قادة هذا الفكر، ومن بينهم كوربوزيه (١٩٦٥ - ١٨٨٧) Le Corbusirer وألتو (١٩٧٦ - ١٨٩٨) Aalto وميز فان در رو (١٩٦٩ -

١٨٨٦) Mies van der Rohe. إلا أن هذه الروائع التي تحققت بقيت نادرة بمعزل عن عموميات التعمير.

إن أقلية من المعماريين في العالم العربي يتمتعون بكفاءات وقدرات متميزة، تمكنهم من تحقيق عمارة حساسة ومتعاطفة مع وجدانية المجتمع.

ومن بين هؤلاء القادة: حسن فتحي من مصر، ومحمد مكية من العراق، وراسم بدران من الأردن، ونبيل طبارة من لبنان.

ما بعد الحداثة

كان لابد - إذن- أن يتقدم فكر معماري آخر ليقابل سلبيات فكر العمارة الحديثة الدولية. تبلور هذا الفكر في اتجاهات متعددة، لعل أهمها العمارة «المقطرنة»، أي الخاصة بقطر معين. وقد نشأ هذا الفكر أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة. سعى هذا النهج إلى «قطرنة» الشكل المعماري، وتطعيمه بمعالم محلية بهدف التنويع وتجنب الرتابة، واستحداث الخصوصية المحلية خاصة، ومعالجة المتطلبات المناخية والجيولوجية الإقليمية. ويتمثل هذا الموقف المقطرن في عمارة كارلو سكاربا Scarpa في إيطاليا، وأوسكار نماير Niemeyer في البرازيل، وكنزو تانكي Tange في اليابان، ولي كان Louis Kahn في أمريكا. ولم يهدف هذا النهج إلى تجاوز مفاهيم العمارة الحديثة الدولية، الشكلية منها، والتي تخص الرعاية الاجتماعية.

برز فكر آخر في الستينيات تصدره المعماري والمنظر الأمريكي روبرت فنتوري Venturi، والذي رأى الحداثة الدولية، كموقف فكري، غير قابلة للإصلاح، لأن أطروحاتها ترفض التنويع والتعقيد المركب في التكوين البصري، وبين فنتوري أنه يمكن تحقيق التكوين الشكلي بإدخال معالم من موقف تأملي قد لا يكون بالضرورة عقلانياً، ودعا إلى تحرير الشكل من مقومات إحداثاته الجدلية أصلا، بل أكد بإيجاز اعتماد الاقتطاف الحر، لذا كان موقفاً لا عقلانياً «عملية تلزيق». من هذا الموقف النظري نشأت عمارة ما بعد الحداثة. وسرعان ما فتحت الأبواب أمام التعامل الحر مع شكلية الشكل، جاعلة إسقاط معالم ملتقطة من مختلف الطرز والعهود ولصقها أمرا مباحا ومشروعا. فأعمال فنتوري Venturi نفسه ومايكل جريفس Graves، مثلا، أدلة جلية على هذا النهج التنظيري وممارسته. وامتد هذا النهج بسبب إمكانات الربح المتصاعد، وظهر فكر معماري ميال للقبول والإذعان لاستحداث عمارة مبهرجة، وهو فكر لا يبالي بتوظيف قدراته لتأمين عمارة متوافقة مع متطلبات الوجدان الاجتماعي. ويتمثل هذا ببعض ممارسات كممارسات ريكاردو بوفيل Boffil في أسبانيا، وباولو بورتوكيزي Portoghesi في إيطاليا، وريتشارد مور

Moore في أمريكا، وغيرهم كـ (ياسوفومي كيجيما Kijima وتشارلز جنكز Jencks وتوماس سميت Smith وماريو ريدولفي Ridolfi) وهكذا، انزلق الفكر المعماري القائد لما بعد الحداثة نحو موقف لا يراعي وجدان المجتمع، ولا تهمه مسألة التوافق مع متطلبات التصنيع المميكن.

مع ذلك، تمكن هذا الاتجاه من إضفاء التنويع على التكوين الشكلي بما يؤمن إشباع الحاجة الاستطيقية وإظهار الخصوصية للفرد والمجموعة. وهو إشباع الحاجة الاستطيقية وإظهار الخصوصية للفرد والمجموعة. وهو إشباع أو تلبية لحاجتين انسانيتين ضروريتين لا جدال فيهما. كما أن اللاعقلانية التي اعتمدها في ممارساته وتنظيره، تشبع متطلبات ردود الفعل لما بعد الحداثة التي ظهرت ضد سلبيات الحداثة، بما في ذلك التلوث البيئي والتلوث المعماري.

العالمية والعولمة

مع تقدم التقانة في الإنتاج، وظهور الطباعة وظهور المعرفة العلمية المعاصرة، وحصول زيادة الفائض في الإنتاج، تكونت إمكانات لدى بعض الدول الأوروبية، مكنتها من الهيمنة على أمم أقل منها كفاءة في إدارة شؤونها، وطرائقية التصنيع لديها، بقدر ما كانت هذه الأخيرة، أو لم تزل، منكمشة في قروسطيتها. وهكذا تمكنت هذه الدول الأوروبية، وعلى نطاق عالمي، من استحداث الاستعمار العالمي. وقد تزامن مع هذا الاستعمار ظهور المفاهيم الإنسانية والليبرالية وحرية انتشار المعرفة، لذا نجد عند تعامل هذين الجانبين، المستتبِع والمستتبَع، في هذه العلاقات على النطاق العالمي، تناقضا متأصلا في علاقاتهم.

أدت هذه العلاقات الدولية غير المتوازنة إلى استحداث مفهوم المركزية الأوروبية/الغربية، وهو مفهوم اعتبر الحضارة الأوروبية أساس التطور الحضاري عامة. وقد سخر المستعمر الأوروبي مفهوم المركزية الأوروبية لدعم هيمنته واستتباعه للآخر، ومنحه شرعية إعلامية. يرجع سبب تكوين فكر المركزية الأوروبية إلى التفوق العلمي والفلسفي والإنساني الذي حققته أوروبا منذ بداية العهد النهضوي، وبقدر ما تمكنت من تجاوز قروسطيتها ومقارنة هذا مع الفكر القروسطي المستوطن في الأقطار المحيطة بعالمها والمتخاصم معها، أي العالم الإسلامي خاصة، الذي كان ولم يزل يتخبط في قروسطيتها.

إذن فإن المركزية الغربية كموقف تؤلف من أي عالم سواها موقفاً متعالياً، أحياناً واضح ومصرح به مباشرة، وأحياناً أخرى مستتر ومخفي، ولذا فإنها لا تخلو من تعصب ديني وإثني، ومن نظرة عنصرية وشوفينية يقينية، وتمتد مواقفها اللاموضوعية المتحيزة فتشمل حتى المأكل والملبس وغيرها من مظاهر خصوصية الثقافة Culture.

ويكمن وراء مختلف صيغ الاستتباع، الاستعمار بصيغه القديمة والمستحدثة، هذا التناقض المتأصل في تكوين العقل الذي ينظمه والذي يستأثر بمنافعه. ولا يستثنى تكوين العولمة من هذا التناقض، بل يظهر فيها هذان المتناقضان أحيانا المتنافر والآخر المتداخل والمكمل. ولذا عند مواجهة العولمة، يتعين علينا أن نميز بين هذين المتناقضين، وإن تبدلت مظاهرها وتنوعت.

لقد ظهرت العولمة في مجال العمارة كمحصلة لاندماج النهج اللاعقلاني الذي ابتدعه نهج مابعد الحداثة، والذي روج لتحرير الشكلية من متطلبات التقانة، مع ظهور مفهوم السوق الحرة، وامتزاج هذين الموقفين، مع ظهور المتغيرات الأخرى التي أشرنا إليها، مما أدى إلى إرباك الفكر المعماري عامة. فانزلق الكثير من الفكر المعماري القائد إلى ممارسات شكلية، كما لو كانت مهمة العمارة تنحصر فيها. ليس هذا فحسب، بل أخذ نهج آخر، وفي عزلة فكرية، يمارس عمارة مبهرجة تلبي متطلبات السوق الحرة التي ظهرت مع اقتصاد العولمة.

فانتقل الكثير من هموم القادة الطليعيين من معالجة الإسكان ومشاكل الرفاه الاجتماعي، إلى تلبية متطلبات الرأسمال الغني وعرض بهرجته، كما ركزت على التعبير عن خصوصيات الذات الاستعراضية. فأصبح من غير المهم مواجهة إشكالية التلوث البيئي والسكاني والذوقي، وانشغل في رؤيوية عبثية لايتجاوز هدفها كثيرا من الزهو. ويتمثل هذا الفكر بأعمال فيليب جونسون Johnson المتأخرة، وبيتر آيزنمان Eiseman وفرانك كيري Gehry وبرنارد تشومي Tschumi ودانيال ليبيسكند Libeskind وزهاء حديد Hadid، وقد ظهر تنظير يدعم هذه النزعة العبثية ويتمثل بما يكتبه مؤخرا تشارلس جنكز Jencks.

ففي بحث العلاقة بين الحداثة وما بعد الحداثة، يتعين أن ننتبه إلى أن الطراز الأخير، باعتباره موقفاً فكرياً من العمارة وممارسة لها، ما هو إلا مرحلة ضمن الحداثة وامتدادا إلى تشعبات ظهورها الفكري، وهو أحد ردود الأفعال ضمن تطورها. وقد تظهر مواقف أخرى ضمن الحداثة : امتدادات لوظائفها وتنوع لشكلياتها، أو ردود أفعال معاكسة واستحداثات جديدة، إلى أن تتقدم الحاجة الاجتماعية والتقانة التي تتولد معها نحو مفهوم جديد للعمارة. والعولمة في مجال العمارة هي إحدى هذه التطورات التي لم تزل في مهدها، وهي تتصف بمقومات إيجابية وسلبية في الوقت عينه، أسوة بالمصنّعات الأخرى التي تسوقها. وإن اصطلحنا على صيغها الإيجابية بالعالمية، باعتبارها تسعى لتحقيق وظائف متقاربة لعقلانية الحداثة وامتدادا لها، سنصطلح على سلبياتها بالعولمة – باعتبار هذه الحركة لها سلبيات من نوع جديد، إضافة إلى امتداد نهج لا عقلانية ما بعد الحداثة فيها – لنتمكن من تمييزها عن العالمية.

تتصف العالمية، International بالانفتاح على تعميم المعرفة دوليا، وذلك بانتقال العلوم وتقانة الإنتاج والفنون كالسينما والمسرح واللباس، عبر الحدود القومية والاثنية. وتتضمن مقوماتها قيم مفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان واحترام القانون وحماية البيئة. لذا أصبح الانخراط في تحقيق العالمية وانتشارها وتطوير مقوماتها أساسا للتقدم الحضاري المعاصر، وبات الوقوف خارجها، أو بمعزل عن تياراتها العلمية والفنية والإنسانية، يعني العزلة والتخلف عن التقدم الفكري الذي حققته المعاصرة والحداثة.

أما العولمة Globalization بمفهومها السلبي، فهي رغبة الدول المتقدمة في السيطرة على بقية العالم بأجمعه والتحكم في مصير مختلف أقطاره، أي أنها الوجه الجديد للاستئثار بمصادر العالم واستتباع الشعوب لها. ولكي تتمكن من تحقيق صيغة الاستتباع التي هي بصدد تأسسه، أخذت تسلب وعي الفرد المعماري المحلي من خصوصيته، وإبعاده عن هموم مجتمعه، والهيمنة على قدراته الابتكارية والتعليمية في مجابهة هذه الهموم، وهذا عن طريق إلهائه في تكوينات شكلية لا عقلانية ومبهرجة، دون الخوض في هموم حاجات مجتمعه والتعاطف مع وجدانيته. فهي امتداد لسلبيات الحداثة كما لسلبيات ما بعد الحداثة، لذا تفرغ -عن قصد أو غير قصد- هوية المعمار الممارس والأكاديمي من ارتباطاتها الوطنية والمحلية.

وقد سخرت ثقافة الصور، التي تظهر في مجلات تعرض شكليات عمارة مستوردة لتحقيق أهدافها السوقية (أي المرتبطة بالسوق)، خاصة بعد أن تمكنت من إسقاط الحدود التجارية. وتهيىء ثقافة الصور شكليات مستوردة، جاهزة، ومعرفة سطحية مكتفية بذاتها، ولذا فإنها تؤلف إغراء إهمال التعرف على واقعيات مقومات الحاجات والتقانة، وضروريات إفعالاتها. لذا فإنها تهيىء الفكر ليواجه الشكليات كمحصلات جاهزة، دون إنفاق جهد للتعامل مع مختلف مقوماتها، أو الخوض في هموم وتقانة توليد شكلياتها، وواقعيات ظروف توليدها. فهي صور سهلة المنال، تروج عن طريق مجلات متخصصة وإعلام مثير خداع يهيىء موقفا ينخدع ببهرجتها، ولذا لا تعرض للنقد والفحص. فأخذت الأوساط الأكاديمية والممارسة عامة تتداولها، وتستنسخها دون جهد فكري كبير، مما جعل أغلب الممارسة والتعليم تلقينا واستنساخا، بمعزل عن واقعية المتطلبات المحلية. لقد انجرف أغلب التعليم الأكاديمي عامة إلى درجة كبيرة، وفي عالمنا العربي خاصة، في هذا الابتذال التعليمي وغيبة الموقف من الوظيفة الإنسانية للعمارة، والتي تفترض تلبية متوازنة للحاجات الثلاث.

وتقابلها العالمية، بل تنافسها وتخاصمها أحيانا، وتتداخل معها أو تختفي وراءها أحيانا أخرى. إذ تسعى العالمية لنشر المعرفة العلمية والفنية والإنسانية والليبرالية، وهي بهذا تحقق امتدادا للإنسانية التنويرية والليبرالية البرجوازية على نطاق عالمي متجاوزة في هذا الحدود

السياسية والثقافية. ولذا تتضامن العالمية مع الموقف المحلي والقومي، الأكاديمي والممارس، وتدعمه بقدر ما يطمح إلى مواجهة الهموم المحلية مسخرا المعرفة والقدرات العالمية بهدف تحقيق خصوصية المحل وإغنائها، ورفعها إلى مستوى الدولي، والحفاظ على البيئة المحلية، والإسهام في التنويع العالمي وتكوينه وتطويره. فبينما تسعى العالمية، والموقف المحلي المتضامن معها، إلى تثاقف المعرفة في مختلف مجالاتها، وبذلك توسع عالمياتها وتغنيها تنويعا. فإن العولمة في المقابل، تسعى إلى اختراق الثقافة المحلية وإغمادها بهدف استتباعها.

والتثاقف يعني التذاوت المتبادل بين المعرفة والعاطفة، ويتحقق على ساحة الاعتراف المتبادل بينهما، أي الاعتراف بحق النقد والاختلاف، وهي ممارسات فكرية لابد أن يقدم عليها المؤدي في أي موقع من مراحل الإنتاج، سواء كان أكاديمياً أو معماريا ممارساً أو تاجراً أو ربة بيت. وهنا تظهر الوظيفة الطليعية لدور الأكاديمي والمعماري الممارس في التثاقف مع المعرفة العالمية والاندماج فيها وتنويعها والإسهام في تطويرها.

لذا، لا يتحقق التثاقف العالمي إلا على قاعدة الندّية بين ما هو عالمي ومحلي، فيما يكون النقل والاستنساخ حالة من الاختراق للثقافة المحلية واستلاب فكرها الفعال، والتعامل مع العولمة من موقع دوني. وبقدر ما يكون تعامل الممارس دونيا نحو العولمة، أو منكمشا في محلياته، ومرتهبا من الحداثة والعالمية، يكون قد أبطل تعامل التثاقف العالمي.

٥ - إفساد العمارة وتلوثها

إن وظيفة العمارة هي تلبية ثلاثة أصناف من الحاجة : النفعية والرمزية والاستطيقية، وبصيغ متوازنة، ويُسخر المصنّع كأداة في إشباع هذه الحاجات، ويتحقق هذا في صيغتين من الحوار :

١ - يتحقق حوار جسدي حينما يتم تماس جسدية المصنع، مع بدنية المتلقي عند سد متطلبات حاجة ما، كجلوس الفرد على كرسي، أو احتماء جسده تحت سقف مأوى، أو حماية ممتلكاته كالطعام والأثاث في بنية مخزن.

٢ - يتحقق حوار تذاوتي حينما تحمل المصنّعات مؤشرات معلوماتية وحسية، لإحداث حوار بين المرسِل، وهو الرؤيوي والمُصنّع، وفي المقابل، المرسَل إليه وهو المتلقي. هناك صيغتان للحوار المتذاوت :

١ ـ ٢ : الحوار الأحادي، اللامتماثل : وهو الذي يهدف لنقل معلومات معرفية إلى المرسل إليه، كإعلامه بأن حيزا معينا أعد لتلبية وظيفة النوم، أو بنية أعدت لتؤدي وظيفة ملعب، أو أن علما مايشير إلى بلد معين. وعند تحقيق هذا الإيصال من المعلومات تنتهي وظيفة الحوار.

٢ ـ ٢ : الحوار الازدواجي، أو المتماثل : يفترض هذا الحوار تذاوتا متبادلا بين الطرفين، ويتحقق هذا حينما يتم نقل حس عاطفي ووجداني في كلا الاتجاهين، بين المرسل والمرسل إليه. يفاعل المرسل حس الآخر المرسل إليه عن طريق المؤشرات التي تحملها المعالم، فيتعاطف هذا الأخير مع عاطفة الأول. وتكون حسية الذات المرسلة قد نقلت إحساسها إلى المتلقي (المرسَل إليه)، ويتمثل هذا في تذاوت حسية المرسَل إليه مع جمالية شكلية المُصنع مثلا. وفي المرحلة اللاحقة من الحوار، يتقدم المرسَل إليه (المتلقي)، ويعبر عن إحساسه إلى المرسل، وبهذا التعبير يصبح المرسل هنا المرسل إليه، ويأخذ المرسل إليه دور المرسل. ويتمثل هذا الحوار المتذاوت عند تحقيق تجاوب متناوب ومتبادل بين المصنّع بصفته مرسل تارة ومرسل إليه تارة أخرى، والمتلقي بصفته مرسل إليه تارة ومرسل تارة أخرى. ومن خلال هذا الحوار المتبادل، وعن طريقه، يحقق التضامن الوجداني في المجتمع، حينما تسخر العمارة كواسطة حسية بين أفراد المجتمع، بأدوار متناوبة : كمرسلين ومرسل إليهم. هكذا كانت وظيفة العمارة في المجتمع التقليدي، ولذا كان يتحقق تعديلها وتطويرها كمحصلة لهذا الحوار المباشر والمتذاوت بين الحرفي والمتلقي، وللسبب ذاته، كانت العمارة المحلية تعبر عن هوية الجماعة، وتؤلف الخصوصية المعلنة عنها.

فإن عجزت معالم العمارة عن تحقيق هذا الحوار، وتأمين إشباع متوازن للحاجات الثلاث، تفسد وظيفتها. وإن تكرر الإنتاج الفاسد، وتفاقم، تتلوث البيئة، فإن الحوار المتذاوت الذي يؤمن التضامن الاجتماعي يفسد معها. وبهذا القدر تفقد العمارة وظيفتها الحوارية، ويفقد الفرد أداة التعامل الحسي مع الآخر، فيتبلد الفكر، وتصبح معالم العمارة بالنسبة إليه مادة جامدة بلاحياة وبلا حس إنساني. وبقدر ما يظهر هذا النقص في عمارة المجتمع، وفي حواره الحسي عن طريق العمارة، ولا يعي به، يكون قد ابتعد عن إنسانيته.

٦ - الحاجة إلى تنظير بنيوي

المجتمع التقليدي

يتضح مما تقدم أنه لم تكن هناك حاجة للتنظير البنيوي في الإنتاج التقليدي، إذ كانت مقومات الإنتاج وسيرورات تحقيقه بطيئة في تطورها، ومحددة في مقوماتها وإفعالاتها، حيث كانت الممارسات اليومية التطبيقية كفيلة بتأليف معرفة مناسبة لضروريات ومتطلبات الإنتاج بالنسبة للفرد المعين. ولذا كانت سيرورات الإنتاج مدعمة بآلية التصحيح الذاتي. فكان نادرا جدا أن يحصل خلل في العلاقة بين متطلبات المجتمع وتصنيع المصنّع، أي ظهور إنتاج أخرق وبالتالي تلوث معماري بدرجة يفسد معها البيئة المُعاشة، ويصبح هذا التلوث عنصرا فعالا في تغريب

الفرد عن البيئة المعمارية، وتبليد ملكاته الحسية عند التعامل معها، كما نجد في مجتمعنا المعاصر.

المجتمع المعاصر

ما إن ظهر المجمع المعاصر للوجود، ابتداء بعصر النهضة، وظهور المعرفة العلمية المعاصرة، أي ظهور التقانة العلمية المعاصرة والميكنة، وظهور تشخصية الفرد (التشخص Individuation)، وتعميم تحويل المصنّع إلى سلعة، والتوسع الأسي للفائض في الإنتاج، هذه وغيرها من مقومات المعاصرة أدت كلها إلى إحداث خلل حاد بين متطلبات تلبية حاجات المجتمع المستحدثة. إذ لم يكن الفكر المعماري، المصنع والمتلقى، متهيئا لمواجهة التغير الحاصل في متطلبات المجتمع المعاصر، خاصة : تعددية الشكلية، وسرعة التغير، وظهور تقانات جديدة لم يسبق للمجتمع مواجهتها أو تصورها من قبل. إذ لم تتهيأ طرائقية تعليمية مناسبة، بالنسبة للفرد المعين، ليتمكن من استيعاب متطلبات المعرفة المناسبة بمختلف مراحل الإنتاج : رؤيوية التصميم، والتصنيع، والتلقي.

وهذا يعني أن مناهج التعليم والتنظير التقليدية أصبحت غير فعالة في مواجهة متطلبات إنتاج الحداثة. فأصبح الخوض في تنظير بنيوية العمارة مسألة ملحة. وبقدر التمكن من هذا، بقدر مايتأهل الفكر المعماري لمواجهة واقعية متطلباتها، وبقدر مايعمم هذا التنظير، ويتم تطويره من قبل الفكر الأكاديمي والممارس، بقدر ما سيؤلف أداة فعالة في توعية المصممين الرؤيويين والمُصنعين والمتلقين، بضروريات الإنتاج، والوقوف على الفجوات فيه، ومواقع مسببات إفسادها. ومن هنا سيتمكن المجتمع من العمل على تهيئة استراتيجيات تعليمية وتثقيفية وتصنيعية تمكنه من مواجهة الأزمات الفكرية والتطبيقية في مجال العمارة في الوقت الحاضر.

إنها أزمة فكرية لم يسبق لها مثيل منذ أن عمّر الإنسان بيئة معاشه. ولا نغالي إن قلنا : لم يعمّر الإنسان ما قبل المعاصرة والحداثة شكليات متبلدة، ولم يكن له أن عاش في بيئة معمارية ملوثة، سواء كان تعميره كوخا أو خيمة أو قصرا، في قرية أو مدينة، إلا ما كان في حالات نادرة جدا.

المصادر العربية

(١) العرب والعولمة ملف (١) . العولمة والهوية الثقافية : عشر أطروحات. محمد عابد الجابري. المستقبل العربي. عدد ٢٢٨. ١٩٩٨/٢.
(٢) العرب والعولمة ملف (١). في مفهوم العولمة. السيد يسين. المستقبل العربي. عدد ٢٢٨. ١٩٩٨/٢.
(٣) العرب والعولمة ملف (١). العولمة والدولة. جلال أمين. المستقبل العربي. عدد ٢٢٨ . ١٩٩٨/٢.
(٤) العرب والعولمة ملف (٢). العولمة والهوية الثقافية. عبد الإله بلقزيز. المستقبل العربي. عدد ٢٢٩ . ١٩٩٨/٣.
(٥) العرب والعولمة ملف (٢). الولايات المتحدة والعولمة. بول سالم . المستقبل العربي . عدد ٢٢٩. ١٩٩٨/٣.
(٦) جدلية الخوصصة (الخصخصة) والعولمة بصفتها... هيمنة كونية. محمد سبيلا. جريدة الحياة. ٩٨/٢/١٩.
(٧) ياسين حافظ والانتلجنسيا مفهوما ودورا عربيا. ميشيل كيلو. جريدة الحياة. ٩٧/٣/٢٦.
(٨) دافوس والعولمة والعرب. ابراهيم نوار. جريدة الحياة. ٩٨/٢/١٣.
(٩) الهوية والخصوصية في الفن والعمارة. رفعة الجادرجي. المستقبل العربي. عدد ٢١٢ . ١٩٩٦/١٠.
(١٠) جدوى رصيد السلف في تكوين المعاش المعاصر. رفعة الجادرجي. المستقبل العربي. عدد ١٩٦ . ١٩٩٥/٦.
(١١) الحداثة وما بعد الحداثة. رفعة الجادرجي. مجلة العمارة. جامعة الروح القدس. الكسليك. لبنان. ١٩٩٦.
(١٢) المعمار والمجتمع. رفعة الجادرجي. مقالة ستنشر قريبا في مجلة أبواب. دار الساقي. لندن.

المصادر الأجنبية

(1)Complexity and Contradiction in Architecture - The museum of Modern Art Papers on Architecture, Robert Venture, 1966.
(2) Postmodern, Paolo Portoghesi, Rizzoli, 1982.
(3) Renzo Piano, Electa/Rizzoli, New york, 1983.
(4) Carlo Scarpa, Electa/Rizzoli, 1984.
(5) Buildings and Projects, Michael Graves, 1966 - 1981, Rizzoli, 1982.
(6) Ideas and Forms, Le Corbusier, William Curtis, Phaidon. Oxford, 1986.
(7) Buildings and Projects, Mario Botta,1961 - 1982, Electa/Rizzoli, 1984.
(8) Modern Architecture, a critical history, Kenneth Frampton, Thames and Hudson, 1980.
(9) Modern Architecture - since 1900, William Curtis, Phaidon, 1982.
(10) Bauhaus, Frank Whiford, Thames and Hudson, 1984.
(11) Deconstruction, Academy Editions, 1991.
(12) Karl Marxs Theory of History, A Defence, Cohen G.A.Princeton University Press, 1978.